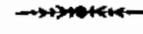


منطقة أنطاكية وخليج الاسكندرونة

للاستاذ أحمد رمزي بك



لمت كناية الحصان الأشقر نار بمثلج الكتيب الأحمر
وفتحت أنطاكية الروم التي نضرت معانها على الاسكندر
وطئت مناكها جيا دك فانفتت تاق أجنها بنات الأصفر
هذا شعر للأبيوردى خاطب به ملكشاه بن ألب أرسلان
حينما فتحت الدولة السلجوقية أنطاكية ، ولست أعرف ركناً
من أركان الدنيا برز في التاريخ بروز هذه البقعة من الأرض ،
فقد لفتت أنظار الإنسان منذ بدأ يفكر وينظم حياته ، فأناس
ملك أو سيادة أو ظهرت قوة فنية أو دعوة دينية إلا وجملت
من أول أهدافها امتلاك هذه البقعة التي شهدت مصارع الدول ،
وحمل صيدها أرزاء الحروب وما يتخللها من إزهاق الأرواح ،
ذلك تاريخها في القرون الغابرة وهذا عهدنا بها اليوم في تاريخنا
الحديث . لقد شملت رجال السياسة بمد الحرب الماضية واهتمت
بعميرها هيئة عصابة الأمم ، ثم كان من نصيبها أن ضمت إلى
أراضي الجمهورية التركية وبقيت معها طول الحرب العالمية الثانية ،
وما انتهت هذه أو قاربت نهايتها واستقلت سوريا ، حتى قامت
تطالب بها ، ولا يعلم غير علام القيوب ما تحببها لها الأقدار
والأيام القادمة .

وإذا ورد ذكر هذه البقعة برز اسم مدينة أنطاكية لأنها
رأت من السمد والعظمة في زمن ملكها أنطيوخس الكبير
(٢٢٣ - ١٨٧ ق . م) ما جعلها سيدة المدن . فكان أن
أصبحت حاضرة سوريا وفاقته غيرها في الثروة والعلوم والتاجر ،
ولما دخلت تحت سلطان روما حصل أهلها على حقوق المواطنين
في الدولة الرومانية ، وإذا بها قد أصبحت إحدى عواصم ثلاث
كبرى : روما والقسطنطينية وأنطاكية .

ولقد حاول بعض مفكرى الغرب من الفرنسيين أن يجعلوا
من ملك أنطيوخس نعمة لملك الاسكندر ومن أثر عمله نكلمة

لساطان الغرب على الشرق ، ودليلاً على تفوق العقل اليونانى على
العقل السامى ، والصورة التي أعطاها المهد القديم والمؤرخ بوسينوس
للامهال اليونانى تنبىء بأنه كان ملكاً مستقبلاً جباراً ، فقد ورد
عنه في كتاب المؤرخ اليهودى ما يأتى : « إنه دخل مصر
يحمى كثيف ومجملات وفيلة وأسطول عظيم فاستحوذ عليها ثم
قوى امره وعظم شأنه حتى استولى على كثير من الأمم وأطاعته
ملوك فارس وغيرهم من الملوك فدخله العجب والكبرياء وطنى
وتجبر وسبب الكثير من الآلام لأهل المشرق » .

فهذه القوة التي طفت على الشرق يقول عنها الكاتب الفرنسى
إنها بقية من عبقرية الاسكندر ، وإن بقاءها كان من ضرورات
بقاء الأصلح ، لأنها تحمل قسماً من روح الهيلىنية إلى الشرق ،
وأنها قوة دافعة منظمه منشئة لأنها أدبت الناس وأخذتهم
بالسيف وعلتهم ما لم يعلموا . ولكن روما لم تفس الخفايق حين
سأقت كتابها وأخذت أنطاكية مركز هذه الحركة ولذلك
لما حطمت الممالك والعروش التي أنشأها أتباع الاسكندر ، كانت
تجارب نفوذ الهيلىنية في الشرق وكانت تحطم بأيديها سيطرة
الغرب على الأمم الشرقية . فروما حينما تنازعت مع أهل أنطاكية
وقضت على عظمتهم مهدت لشعوب الشرق عودة ، بدأت بقيام
الفرنسين أو البارتين وهم قوم عرفوا بشدة المراس والعبير على
القتال ، وظهرت في غضب اليهود بحركة المكابيين وتطورت
بظهور المسيحية ضد هذا التحكم ثم في مذاهبها المختلفة التي يعبر
عنها بالكنايس الشرقية ، والتي نتجت نفثة ضد استحواد أهل
الغرب على المسيحية وهي شرقية في أصولها ومبادئها ومراسمها ،
وما كان هذا ليحدث لولا اختلاف الكلمة وتعارض المصالح
بين روما والاعريق المحتلين لأراضى الشرق ، فلو تم بينهم التعاون
والتفاهم والتآزر والتكاتف وما تملبه وشأمج القربى . لما تهيأت
الأسباب لقيام الشرق مرة أخرى ، ولما تقاعلت الموامل التي
مهدت السيل أمام جيوش السلمين فاستولت بعد قرون قليلة
على إرث روما وبزنتظة وما أنشأه الاسكندر من مجد وملك
قبل ذلك .

وتلك دعوة لها خطورتها لأن معناها أن الخلاف الذى قام
بين فرنسا وبريطانيا على سوريا ولبنان يمثل النزاع الذى نشب

أجل الضيق قد اجتازوا فينيقية وقبرص وأنطاكية يوم لا يكلمون أحداً بالكلمة إلا اليهود ، ولكن قوماً منهم كانوا قبرصيين وقبرارتيين فهؤلاء لما قدموا أنطاكية أخذوا يكلمون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع .

ففي أنطاكية تحولت الدعوة إلى حركة عالمية . فهذا أثر من تأثير هذه البقعة الفريدة ، التي كانت قبلة الدنيا وجمع مدينة الشرق مع مدينة الغرب ، ولو أدركتها المسيحية وهي في إبان مجدها وسطوتها ؛ أي لو تقدمت قرنين من الزمن حينما كانت أنطاكية حاضرة سوريا وقد فاقت قرطاجنة وصور وصيدا ، فالأغلب على الظن أن كانت تأخذ أنطاكية في عالم المسيحية مكان روما .

ويجمع المؤرخون على أن أنطاكية كانت مركزاً هاماً للدعوة المسيحية في القرن الرابع وإن كان هناك من يقرر بأنها كانت منذ البداية أول مراكز أرسل منه البشرى المسيحية إلى أقطار العالم ، وظهر فيها القديس يوحنا فم الذهب بل كانت مسقط رأسه وسطمت فيها أعماله ومعجزاته ، وكان أهلها مائتي ألف نسمة دخل نصفهم في الدين الجديد وتصدروا الدعوة إليه ، ولذلك نذكرها الكتب المسيحية بأنها المدينة الأولى في العظمة بعد روما ، وأنها تأتي في تاريخ الكنيسة بعد القدس ، وهذا ما جعلها مكاناً يؤمه أهل التقوى والصلاح والعبادة ويهرع إليها الزوار لرؤية ما كانت تحويه من قبور القديسين والأبرار وما عرف عنها من المعجانات .

فمدينة هذا تاريخها يأتي ذكرها دائماً في الكتب القدسة وفي تاريخ الكنيسة ويتكرر هذا الإيم في الطقوس والصلوات وورد في ألقاب رجال الدين من مختلف الطوائف والمذاهب ، لا شك في مكانتها وعظمتها واحترامها في قلوب الناس ، وإن مجرد ذكر اسمها يحرك ذكريات عزيزة على النفس ، وهذا ما تؤكد الآيات الواردة في أعمال الرسل . « ثم خرج برنابا إلى طرسوس في طلب شاؤل ولما وجده أتى به إلى أنطاكية ، وترددا سنة كاملة في هذه الكنيسة وعلمها جميعاً كثيراً حتى أن التلاميذ دعوا مسيحيين بأنطاكية أولاً » .

أحمد مصطفى

بين روما وأهل أنطاكية في الشرق وأن الامبراطورية البريطانية تلمب اللبنة الخطرة التي أخذت بها الامبراطورية الرومانية منذ عشرين قرناً فهي قد فضت على نفوذ فرنسا وأبعدتها عن سواحل البحر الأبيض المتوسط في شرقيه ، كما زحزحت روما نفوذ الهيلىنية عن هذا الشاطئ ، فكانت النتيجة أن خرج الشرق من تحت سيطرة روما واليونانيين وتقلص حكم الغرب عن أم الشرق ، فباكم أن يحدث لكم ما حدث للقديس من قبل ويخرج الشرق من يد بريطانيا وفرنسا على السوء .

وإنما سقنا هذا الحديث للتدليل على أثر هذه البقعة من الأرض في عقول القوم من ناحية السيطرة الفكرية والرغبة في التحكم على مقادير الشعوب من شباك يطل علينا ويشير لنا الكثير من المشاكل . ولقد نظرنا إليها من الوجهة التي يرى بها رجل الفكر الغربي فلنجرب نظرة رجل الدين .

كانت أنطاكية مثل الاسكندرية ميداناً للتنازع بين الوثنية والمسيحية ، ذلك التنازع الذي انتهى بانتصار الفكر السامى ممثلاً في تعاليم مُعَلِّم الناصرة ، ولكن أنطاكية فاقت الاسكندرية في ناحية أثرها في حياة المسيحية ، فكلنا المدينتين أوتيت حظهما من حياة الترف واللهو والخلاعة والتفاضى عن الفضيلة . ثم قامت في كل منهما دعوة للخير والصلاح وترك الدنيا والابتهاال إلى الله ، ولكن النكبات المتتالية وخصوصاً الزلازل المدمرة جعلت أهلها في حيرة منها ، وأخيراً قرأهم على أن يطلقوا على أنطاكية إسم « مدينة الله » ونحسبوا بالفضائل وجانبوا الرذائل وتقربوا بهذا لله زلنى ؛ وكان أن عرفت مدينتهم وسط مدن العالم بأنها حازت سلطان الحياة الدينية ، وإذا بكرسيها يتلأأوسط كراسى ملكوت السماء ، ويقول عنها الناس : ليس في المسيحية كلها بعد روما سوى أنطاكية الخالصة .

ولذلك لا تعجب إذا وجدت عدداً من رؤساء الطوائف المسيحية يضمها في المكان الأسمى من نموته وألقابه الكهنوتية فيقول كل منهم إنه صاحب كرسى أنطاكية وسائر المشرق . وهم على حق في ذلك لأن أنوار المسيحية أشرقت على الأرض من هذه البقعة ، وانتقلت من مواجهة إسرائيل إلى مواجهة الدنيا ، وفي ذلك يقول القديس لوقا : « وكان الذين تبددوا من